علاء حليحل *

"مسرح الحرية" وتكريم "شاعر المقاومة"

مسرح "الحرية" لا يزال حياً

يجزم المخرج والممثل نبيل الراعي من مسرح "الحرية" في مخيم جنين للاجئين، في حديث مع "مجلة الدراسات الفلسطينية" في نهاية نيسان / أبريل المنصرم، بمسؤولية أطراف عدّة عن مقتل جوليانو خميس، وكان نبيل رفيق درب جوليانو في تأسيس المسرح وتطويره وإدارته، وهو لا يزال حتى اليوم عنصراً أساسياً في مدرسة التمثيل في المسرح، وفي إخراج الأعمال المسرحية وإنتاجها، فيقول:

> أنا كنت في السجن ٤٠ يوماً أتحدث مع جدران الزنزانة في معتقل الجلمة. قلت للإسرائيليين أنتم مرتبطون باغتيال جوليانو [....] سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. حسب تحليلاتي وقراءاتي، فإن مقتل جوليانو لم يكن انتقاماً شخصياً من فرد ما أو جماعة، إنه اغتيال نظمته جهات كبيرة جداً.

أسأله عن وضع المسرح اليوم، فيقول بثقة:

> وضعنا أفضل بكثير من السنة والنصف الأخيرة. أقصد من الناحية العاطفية والشخصية وحتى المهنية. كانت السنتان المنصرمتان بمثابة رحلة قاسية. تساءلنا: أين نحن؟ ماذا نفعل؟ هل نكمل؟.. كنا في خضم صراعات داخلية وخارجية متعددة الأنواع والأشكال. هذه حقيقة بحتة. ولكن الحمد لله كانت هناك إشارات إيجابية منذ البداية: إحدى هذه الإشارات تمثلت في تقديم عرض مسرحي بعد شهر واحد على اغتيال جوليانو، تحت عنوان "شو كمان".

مَن قتل جوليانو؟ سؤال لا يزال يؤرّق الجميع. يردّ المخرج رياض مصاروة، الذي عمل مع جوليانو حين كان مديراً لمسرح "الميدان" في حيفا وأخرج معه المسرحية القوية والمثيرة "العذراء والموت"،

* كاتب ومسرحي فلسطيني.

على السؤال عن هوية القاتل ـ مثلنا جميعاً ـ بتساؤلات وتحليلات، فيقول:

> بإمكاننا أن نشير وأن نحلل وأن "نرخي الرسن" لخيالنا بسبب فقدان الأدلة، وأن نطرح الكثير من الأسئلة: هل الظلاميون هم الذين قتلوه؟ هل الإسرائيليون ومخابراتهم هم المعنيون بوقف عجلة الوعي المتراكم؟ وأريد أن أجازف وأقول إننا نحن مَن قتل جول لأننا تركناه وحيداً في معركته، ولم ندقّ ناقوس الخطر عندما ردّد مراراً أمامنا أنه سيُقتل في يوم من الأيام. نحن المتهمون إلى حين معرفة القاتل ومرسله.

الفنانة المسرحية سلوى نقارة (حيفا) تعتبر مقتل جوليانو "خسارة للحركة المسرحية الفلسطينية"، فتقول:

> الخسارة هي لشخصية الفنان الذي اختار جوليانو أن يكونه بدون تنازل. كان فناناً مبدعاً لا يساوم؛ يصغي إلى ذاته وفكره وأحلامه؛ صادق في عمله حدّ الوجع؛ فعله المسرحي كممثل ومخرج لا يمكن أن يتركك مرتاحاً، لأنه يهزّك حتى الأعماق ويصفعك لكي تخرج من اللامبالاه وتفكر. لقد أدرك جوليانو قوة الفن واختاره منبراً للفكر الحرّ، وليس صدفة أن الاسم الذي أطلقه على المسرح هو "مسرح الحرية". لا فكر حرّ بدون نسف الحواجز الفكرية القمعية. لقد دفع الثمن لأنه رفض أن يدخل عالم الإرضاء والمجاملات وضرب السلامات. لقد خسرنا فناناً حراً ومبدعاً منح نفسه حرية الاختيار.

نقارة أيضاً تؤكد هوية القاتل: "الذي قتله هو الفكر الرجعي، والخوف من أن نُحدث التغيير. وقد أثبت التاريخ دائماً كم من السهل قتل فنان." ومصاروة ونقارة يؤكدان المشاعر السائدة بين أهل المسرح والثقافة في فلسطين: إنها السهولة غير المحتلمة في إخراس وقتل فنان إشكالي ومثير.

لكنّ هذا اليأس أو السوداوية لم يعششا في مسرح "الحرية" بعد تغييب جوليانو، وإنما على العكس، كما يؤكد الراعي:

> في هذه السنة أنجزنا ثلاثة إنتاجات مختلفة، أبرزها "رسالة انتحار من فلسطين". لقد عرضنا العرض الاحتفالي الأول في ٤ نيسان / أبريل ٢٠١٣، في الذكرى الثانية لاغتياله، وكانت هذه الاحتفالية بالنسبة لنا تكريماً لجوليانو نفسه. نحن اليوم لسنا خائفين. خوفنا تعدّى الحدود وأخذنا في رحلة أُخرى هي رحلة تحدٍّ. إنتاج هذه المسرحية كان ضرورياً لنا.

أسأل نبيل ما إذا كان المموّلون والداعمون والمؤسسات والناس قد استعادوا الثقة بالمسرح، فيؤكد:

> نعم استعادوا الثقة بالمسرح. بعد هذا العرض استعدنا ثقة الناس [في مخيم جنين

وخارجه] الذين بدأوا يشعرون بأن الأمور تسير بشكل جيد. الشيء الجميل هنا أن المسرح ليس أسماء. أنا أتحدث عن جيل عاصره جول في بداية البدايات. أنا فخور جداً بهذا الجيل. هم الذين يصنعون الإنتاجات اليوم. فأحد هذه الانتاجات مثلاً، مسرحية "الجزيرة" التي صنعها طلاب جوليانو، ومسرحية "أحلام مسروقة" التي أتت من شباب إلى شباب، وهي من صناعة طلاب مسرح "الحرية". بدأنا نخرج من إطار الحاجة إلى قائد خارجي. نحن يجب أن نرعى بعضنا البعض، وأن نقبل المساعدة الخارجية ضمن حدود معينة.. وحين أقول خارجية أعني جهات فلسطينية أيضاً.

وعن الإشكاليات التي يعيشها مخيم جنين اليوم وعن علاقته بالمسرح، يقول نبيل:

وتوجد اضطرابات سلبية جداً: يوجد إطلاق رصاص في الليل ومواجهات مع السلطة الفلسطينية، واعتقالات يقوم بها الإسرائيليون. مع ذلك، بدأ الجمهور من مشاهدي المسرح في المخيم يعود إلينا. آخر عرض لمسرحية "رسالة انتحار من فلسطين" كان مليئاً بالأطفال في سن ١٢ ـ ١٤ سنة، وكانوا سعيدين للغاية بالعرض وبالنقاش الممتاز بعد المسرحية. حتى مدير المخيم يتعامل معنا بشكل إيجابي. أنا أعي أن هذا ليس رأي الناس كلهم هنا، ولكن هذا رأي هام بالنسبة لنا.

مشروع جوليانو المسرحي

أهل الثقافة والمسرح جميعاً، ومن ضمنهم نقارة ومصاروة اللذان تحدثا عن جوليانو، يرون أن مشروع جوليانو جاء من رحم مشروع والدته آرنا مير ـ خميس التي أسست في أعوام الانتفاضة الأولى مسرح "الحجر" في مخيم جنين.

يقول مصاروة:

لم يولد مشروع آرنا مير صدفة، أو انطلاقاً من نزوة إنسانية لتجميل نزعتها الإنسانية، أو كمشروع شفقة على مجموعة بشرية تتألم من سياط تاريخ مجرم وبشع، وإنما هو مشروع واعٍ ومشروع احتجاج أيضاً على ممارسات لا إنسانية من أبناء شعبها على شعب آخر. نعم... باستطاعتنا القول إن آرنا في اختيارها لمخيم جنين واختيارها فئة الأطفال بالذات للعمل معها، أرادت أن توجه أنظار العالم الى أطفال جنين وتقول: يحق لهم أن يمارسوا طفولتهم وإنسانيتهم. والمطّلع على أدواتها يستطيع أن يكتشف الأسلوب التحريضي من أجل إبراز مكامن القوة في طفل المخيم.

كما أن البعد "البطولي" إذا صحت التسمية (وجوليانو كان سيرفض هذه التسمية) في التضحية الشخصية التي قدّمها جوليانو في مشروعه في مخيم جنين، لا تنفصل عن قيمه الفنية ورؤيته لدور الفن في بناء الشعوب. أن تترك بيتاً آمناً في حيفا

ومسيرة مهنية غنية واستعداداً للاحتضان الدافئ من الثقافة الإسرائيلية، وأن تنتقل مع عائلتك إلى مخيم جنين لتبدأ الحفر من الصفر بعد الاجتياح الدموي سنة ٢٠٠٢، هو بطولة بدون أي مبالغة، ولكنها بطولة تخرج مباشرة من القيَم التي يحملها عن العدل والتضحية والتجنّد لأجل قضية ما. مرة قال لي جوليانو في شقته في جنين: كأي ماركسي حقيقي قمت بعملين هامّين؛ خرجتُ من الحزب الشيوعي وانتقلت للسكن هنا، ولم أكتفِ بإطلالات جميلة من مرة إلى أُخرى لرعاية أبناء المخيم.

جوليانو صنع تاريخاً فعلاً، لكن في ذكرى اغتياله الثانية لم يصنع أحد في فلسطين التاريخية أي نشاط عام لإحياء هذه الذكرى. ومَن قال إن التاريخ يولي الذكريات والتذكر اهتماماً؟

حنا أبو حنا: صبابة الشاعر

في منتصف عرض للشرائح (slides) انهمرت دموع الشاعر والمربي حنا أبو حنا. كان الشاعر المخضرم المولود في سنة ١٩٢٨ يجلس في غرفة دراسية في جامعة تل أبيب، ضيف شرف في الأمسية التكريمية التي نظمتها له حركة "جفرا"، وهي حركة تابعة للتجمع الطلابي الديمقراطي، في ١٧ نيسان / أبريل المنصرم. كان عنوان الأمسية "صبابة. نصوص في الحب"، وجاءت وفق منظميها: "تكريماً للأديب الفلسطيني الكبير حنا أبو حنا، لإسهاماته الثقافية والأدبية فلسطينياً وعربياً."

في العامين الأخيرين كُرّم أبو حنا أكثر من مرة وفي أكثر من مكان، واحتفالات التكريم كلها توزعت بين الأديب وبين المربي. فعمله في سلك التربية مدرسا ثم مديراً للكلية العربية الأورثوذكسية في حيفا، هو جزء أساسي من شخصيته ومساهماته الطويلة والثرية جداً في مسيرة الفلسطينيين في الداخل خاصة. كان أبو حنا في شبابه حاضناً وراعياً وأستاذاً لجيل الشعراء المقاوم الذي تحوّل كله إلى أسماء شهيرة: سميح القاسم وراشد حسين ومحمود درويش. قرأ دواوينهم الأولى وأبدى ملاحظاته عليها، وهم جميعاً يعترفون بفضله عليهم، في شتى المجالات، وخصوصاً في الشعر وفهم القصيدة، وقد قال عنه درويش: "حنا أبو حنا علّمنا ترابية القصيدة."

ليس بديهياً اليوم أن ترى عشرات الطالبات والطلاب الجامعيين يحضرون أمسية أدبية ـ ثقافية، ويستمعون بانتباه وصبر إلى قراءات من جيل كتّاب يُعدّون شباباً وجديدين على المشهد الثقافي. وقد يكون الأمر طبيعياً حقاً لو أخذنا في الاعتبار التجديد المتواصل الذي يطرحه كل جيل فلسطيني جديد على مَن سبقه ومَن سيأتي بعده، وبالتالي فإن جيل المتلقّين الجديد يود سماعهم والتعرف إليهم أيضاً.

أدار الأمسية وأشرف عليها الشاعر علي مواسي الذي قرأ في مطلعها قصيدة "هو الليل" لحنا أبو حنا (ديوان "عرّاف الكرمل"، ٢٠٠٥):

لنا/ لك/ لي/ هذه الليلةُ الوارفة/ لنا قبّةُ الليلِ/ نبعُ السّكونِ/ لنا هذه النجمةُ الخائفة/ هو الليل/ مَشْرِقُ شمس الصبابة/ سحراً/ فسحراً/ تفتّحَ فلُّ الجنانِ/ على مقلة العاصفة

وشارك في الأمسية عدد غير قليل من الكتّاب والشعراء الصاعدين، وهم: لنا عدوان؛ رأفت آمنة جمال؛

آلاء سلطاني؛ شيخة حليوى؛ طارق خطيب؛ علي مواسي؛ محمود أبو عريشة؛ إلى جانب عامر قحاوش (غناءً). والمجددون والشباب في الأدب والثقافة هم أصدقاء الشاعر حنا أبو حنا دوماً، فهو الشاب المتجدد بنفسه، لم يتجمّد شعره ولم يهرم، بل يحمله دائماً على جناحَي القصيدة المتفتحة دوماً. فمن قصائده المقاومة والجميلة والنادرة والسياسية والصدامية، تلك التي كتبها عن فترة سجنه واعتقاله في سنة ١٩٥٨، فقال:

خسئوا، فما حبسوا نشيدي | بل ألهبوا ناصر القصيدِ
شرف لشعري أن يقضَّ | مضاجع الخصم اللدودِ

كما كتب:

شعبٌ أنا، إن يحبسوا فرداً فكل الشعب ثائرْ | وإذا يصفد شاعرٌ هتف النشيد بكل شاعرْ |
شعب يمد حشوده جسراً على نهر المجازرْ | ويعانق الفجر الملوّح | بالضياء وبالبشائرْ

من هذا النفس الشعري المقاوم المباشر والمتين، إلى حالة شعرية حداثية بامتياز، بموضوعاتها وتفعيلاتها وأسلوبها في ديوانه "عرّاف الكرمل" (٢٠٠٥). يكتب هناك:

مَن نسج الخمر وشاحاً | للنهدين؟ | مَن أطلق أسراب الغزلان | على الردفين؟ | بالنار يطهرني | هذا السحر الكامن | في الجفنين | لأرى خارطة الجنة | ما بين القرطين

وعن المخيم يكتب بحالة شعرية مختلفة تماماً:

باب المخيم | جميزتان | باب المخيم | دبابتان | باب المخيم جُنّ الحِمام | باب المخيم | ناح الحمام

حنا أبو حنا شاهدٌ على فلسطين منذ العشرينيات، وشريك في كتابتها وحراكها وحياتها بتفصيلاتها كافة. إنه فلسطين بتوتراتها ومحطاتها كلها، بلحظات سعادتها وحزنها، بتفاؤلها وتشاؤمها، بعراقتها وتجددها. وقد أكد في أمسية التكريم أن:

النكبة لحقت بالثقافة، فلم يبقَ من الكتّاب أو الشعراء في فلسطين إلاّ مَن هم بعدد أصابع اليد الواحدة أو أقلّ، ولذلك كان همنا أن نبني ثقافة وأن نبلور وعياً، فأنشأنا مجلات وصحفاً عدة، واهتممت بشكل خاص بدعم الطاقات الكتابية الشابة الجديدة، مثل راشد حسين، وسميح القاسم، ومحمود درويش... فرحت الليلة لأنني رأيت أن ما قمنا به في السابق من مهرجانات شعرية أثمر، وأنها تستمر وتتكرر. كنا نذهب إلى القرى في ظل الحكم العسكري لتنظيم المهرجانات، ولا بدّ من أن تذهب للسجن أو تدفع الغرامات جزاءً بعد ذلك، وكنا بها نصل إلى القرية حيث نسبة الأمّية عالية لوضع

شعلة من الأمل في القلوب.

ما يميّز أبو حنا شاعراً هو التجدد الدائم وقدرته على التقاط اللحظة الزمنية التي يعايشها، لأن قصائده رشيقة، فيها طبيعية وانسياب، والقافية لديه كائن حيّ، وهو يمارس فيها لعبة ذكية من الموسيقى والإيقاع والضبط. كما أن طلائعية أبو حنا تجلّت في تأسيسه "جوقة الطليعة" في سنة ١٩٤٨، بعد أشهر قليلة من النكبة، أي مباشرة بعد تهجير شعب كامل وهدم مدنه وقراه وحضارته، فكان يكتب لها الأغاني الوطنية، ويرعاها، وينتقل بها من مكان إلى مكان، ولعلها أول ردة فعل ثقافية على النكبة في فلسطين.

ليان

الطفلة ليان برهوم (عامان) تبحث عن كليتين. هذه مصيبة، لكن المصيبة الأكبر أن تكون طفلاً وبحاجة إلى زرع كليتين، وأن تكون من غزة في الوقت نفسه! وكأي مفارقة فلسطينية، نُقلت ليان مؤخراً إلى مستشفى "رمبام" في حيفا لتلقي العلاج، ثم اكتشف الأطباء أنها تعاني نقصا في إنزيم "أوكسالات" بالكبد، الأمر الذي يؤدي إلى ترسب الحصى في الكلى، وبالتالي يصبح هناك حاجة إلى غسيل دوري للكليتين. الحل طبعاً هو عملية زرع كليتين، لكن التكلفة تصل إلى نصف مليون دولار. إسرائيل لا تعترف بها والسلطة الفلسطينية رفضت بدعوى ارتفاع التكاليف. ومَن تبقّى لليان؟.. الشباب في فلسطين الداخل والثقافة المتجندة.

منذ مطلع العام أُجريت أكثر من ٥ فاعليات في اللد وأم الفحم وحيفا وباقة الغربية والقدس لجمع الأموال التي ربما تساعد على إنقاذ ليان. لكن ليان ليست وحدها. فمنذ ما يسمى "فك الارتباط" مع غزة تبرز من فترة إلى أُخرى حالات خاصة لأطفال فلسطينيين يُجلبون إلى تل أبيب أو حيفا للعلاج في مشافيها، بسبب ضعف البنى التحتية في غزة المحاصرة. فقبل ليان كانت آية عبد العال ولين حسن وولاء عمر. وهذه حالة مستمرة من اضطرار الخاضعين للاحتلال إلى اللجوء إلى المحتل للعلاج. وبين هذا وذاك تتجند الثقافة الفلسطينية في الداخل لمؤانسة ودعم الأطفال. فقبل سنتين انطلقت حملة تجنّد ممثلين ومسرحيين لعروض مسرحية وكوميدية لأطفال من غزة والضفة الغربية يمكثون في المستشفيات الإسرائيلية. ومؤخراً انطلقت الحملة من أجل ليان التي حققت مداً كبيراً ومفاجئاً. فإلى جانب العروض المسرحية والموسيقية والأمسيات الأدبية التي تجندت لها في الأشهر الأخيرة، رُتبت مباراة كرة قدم ودية في أم الفحم كفكرة جديدة تُطرح لمثل هذه الغايات.

هذه ظاهرة مباركة وهي تعبّر عن الرابط الذي لم ينفصل بعد بين الهمّ السياسي والهمّ الثقافي، مع أن الثاني يحمل الأول أكثر كثيراً ممّا يفعل الأول.

بعجالة

من ضمن النشاطات والأخبار الجارية الأُخرى في الفترة الأخيرة، بُدىء العمل على مسرحية جديدة في مسرح "الميدان" في حيفا عنوانها "تغريبة"، وهي من إعداد وإخراج عامر حليحل، وتتمحور حول شهادات وروايات للاجئين تحدثوا عن تجربة خروجهم من فلسطين في النكبة، وما آلت إليه أحوالهم في طريق التهجير نفسها. وفي المسرح أيضاً، اختتم مشروع "خشبة" أعماله المصورة التي

انبنت على فكرة جديرة بالتأمل، وهي تصوير مسرحيات قصيرة على الخشبة وعرضها في "يوتيوب"، وقد أنتجت المجموعة ٩ مسرحيات قصيرة. وعلى مستوى الأدب أعلنت دار "راية" للنشر في حيفا بدء العمل على إصدار مجموعة الأعمال الكاملة للراحل محمود درويش، وهي المجموعة الكاملة الأولى على حد علمنا بعد وفاته.

ويستمر مجمعا اللغة العربية في الداخل الفلسطيني، الأول في حيفا والثاني التابع لكلية القاسمي في باقة الغربية، بإصدار كتب ومجلات وأبحاث في مجال اللغة والأدب، مثل: "ملامح أسلوبية جديدة في الأدب العربي الحديث"؛ *The Arabic Novel in Israel*؛ "التسميات الفلسطينية وعلاقتها بالحيز المكاني"؛ "معجم الموتيفات المركزية في شعر محمود درويش"؛ "هموم المرأة العربية في أدب ليلى العثمان". ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

أوراق عائلية

دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين

(طبعة ثانية منقحة)

تحرير

زكريا محمد وآخرين

مراجعة

صالح عبد الجواد

٢٦٦ صفحة ١٥ دولاراً